الفيلسوف

عقيدته الفلسفية

أرسل الفيلسوف هوايتهيد كلمة تحية إلى صديقه جون ديوى نشرت فى الكتاب الذى تولى الأستاذ شيلب إصداره عن فلسفة ديوى عام ١٩٣٩ ، وجاء فى استهلالها ما نصه :

« الفلسفة صناعة واسعة غير محدودة تحقق خدمات كثيرة لتقدم الإنسانية . وجون ديوي يجب أن يوضع فى مرتبة الذين جعلوا الفكر الفلسفى موافقاً لحاجات زمانهم ، وهو من هذا الوجه يرتفع إلى مصاف قدماء الرواقيين ، وأوغسطين ، والأكوينى ، وفرنسيس بيكون ، وديكارت ، ولوك ، وأوجست كومت . ولا تقوم شهرة هؤلاء القوم على مذاهبهم الخاصة التى يبتهج بها الدارسون ، وإنما كانت نتيجة أعمالهم أن تلقت معظم النظم الاجتماعية فى زمانهم دفعةً من التنوير يسرت لها تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من أغراض. . . وقد أدى جون ديوى للحضارة الأمريكية خدمات شبيهة بذلك ، حين كشف عن الأفكار العظيمة المتصلة بعمل النظام الاجتماعى . . . » [1]

إنها تحية فيلسوف لفيلسوف ، تشبه تحية برتراند رسل لصديقه مما ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب . ولا خلاف بين الدارسين على وصف ديوى بأنه فيلسوف ، ولكن الخلاف بينهم أهو الناطق بلسان الفلسفة الأمريكية أم لا . وهذه مسألة يقدرها الأمريكان أنفسهم . فى أعقاب الحرب الأخيرة عهد إلى الجمعية الفلسفية الأمريكية ، وأعضاؤها من أساتذة الفلسفة بأمريكا ، بأن تفحص حالة الفلسفة والدور الذى يمكن أن تقوم به بعد الحرب . وأتمت اللجنة المشكلة عملها ،

---

(١) Schilpp, p. 477.

وأصدرت كتابا عنوانه « الفلسفة فى التربية الأمريكية » بحثت فيه وظيفة الفلسفة وأثرها فى تنمية حياة حرة مفكرة فى المجتمع . ونقل ديوى ما جاء فى مقدمة تقريرها ، من أنه : « لا يوجد فى موقفنا الراهن مذهب له سلطة مسلم بها يسمى " فلسفة " يمكن أن يزعم ناطقون أنهم مفوضون بالتعبير عنها . وإنما هناك فلسفات وفلاسفة وإنهم ليختلفون فلسفيًا حول الأمور التى دعينا لبحثها » . ثم مضى يرد على هذه الدعوى .

وتصدى ديوى للرد على مزاعم الممثلين للجمعية الفلسفية ، يحمل فى طياته التحدى لهذه الجماعة التى تفرقت كلمتها ، كأنه يريد أن يقول لهم : أنا الفيلسوف الناطق بلسان الفلسفة الأمريكية . حملت لواءها نصف قرن من الزمان ، ولا أزال أتقدم برايتها إلى الأمام . بل إن دعواه لا تقف عند حد تمثيل الفكر الأمريكى . بل تذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى شق طريق الفلسفة فى العالم أجمع .

فما هذه الفلسفة التى يبشر بها . ويطالب الناس باعتناقها ؟ أتكونت فكرته عنها منذ بدء حياته الفكرية أم تغيرت فكرته عنها وتطورت ؟

إن الخطوط الرئيسية لفلسفة ديوى قد أودعها فى كتابه « الديمقراطية والتربية » ويبدو أنه لم يعدل فى هذه الخطوط بعد ذلك اللهم إلا فى التفصيلات . ونحن نذكر حين بحثنا جانب المربى فيه أنه جعل من الفلسفة نظرية عامة فى التربية . ذلك أنه أرجع الفلسفة إلى معناها الأصيل وهو محبة الحكمة ، أى الصلة بين الفكر والسلوك فى الحياة .

فالفلسفة من حيث مادتها هى « محاولة الإحاطة أى الجمع بين التفاصيل التى تتصل بالعالم والحياة فى كل واحد . وهذا الكل إما أن يكون وحدةً وإما أن ينزل بالتفاصيل الكثيرة إلى عدد صغير من المبادئ النهائية — كما هو الحال فى

---

(١) الديمقراطية والتربية ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

المذاهب الثنائية . وأما من حيث موقف الفيلسوف وموقف من يتقبلون استنباطاته فثم محاولة للتوصل إلى نظرة موحدة كاملة متسقة عن الخبرة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وهذه الناحية يعبر عنها بكلمة " الفلسفة " أى حب الحكمة ».

وبعد فإن الفلسفة متصلة اتصالا مباشراً بالحياة مما يميز الفلسفة عن العلم . وهذه الصلة التى تربط بين الفلسفة والحياة هى التى أفضت به إلى القول بأنها نظرية عامة فى التربية .

وفى أعقاب الحرب العظمى الأولى ذهب ديوى إلى اليابان وألقى محاضرات جمعها فى كتابه الذى سماه « تجديد فى الفلسفة » لم يبسط فيه نظرية جديدة بمقدار ما استعرض تاريخ المذاهب الفلسفية الكبرى ناقداً إياها ، ومبيناً التيارات الجديدة التى أفضت إلى الموقف الحاضر للفلسفة . وقد نعى على المذاهب القديمة الموروثة عن اليونان فصل النظر عن العمل مما أدى إلى ظهور الثنائيات المشهورة مثل الجسم والعقل ، والمادة والروح ، مع رفع المثالية عن الواقعية ، والروحية على المادية ، والنفس على الجسم وهكذا . ثم وقف عند بيكون وامتدحه لأنه فتح باب العلم الحديث ، وجعل العلم « قوة » يتسلح بها الإنسان فى هذا العالم . ثم تحدث بعد ذلك عن التجديد فى المعرفة وفى المنطق وفى الأخلاق وفى الاجتماع والسياسة ، مطالباً بتطبيق المناهج العلمية على الأمور الإنسانية .

كان ذلك الكتاب بذور بناء فلسفى جديد اكتمل بعد عشر سنوات . ففى عام ١٩٣٠ نشر فى مجلة « فورم » مقالة بعنوان « عقيدتى الفلسفية »[1] تشبه ما نشره من قبل عن عقيدته التربوية . إنها دستور الفلسفة . وأساسها الذى تقوم عليه . يتكون هذا الدستور من عدة مبادئ هى الإيمان فى الخبرة لا فى سلطة فوقها ووراءها ؛ وأن رقى العلم والصناعة نشأ من الاعتماد على فلسفة الخبرة ؛ وأن الفرد والجماعة هما المحور الذى تدور عليه الخبرة ؛ وأن ما تم من رقى فى العلم والصناعة على أساس الخبرة يجب أن يتم فى الدين والأخلاق والسياسة كذلك ،

(١) انظر ترجمة هذه المقالة كاملة فى النصوص .

ومن هذا الوجه كانت مهمة الفلسفة إخضاع هذه الميادين الإنسانية لأخيرة لمناهج البحث العلمية .

ومن الواضح أن الخبرة هي أساس هذه العقيدة الفلسفية . ولأجل ذلك سمى ديوى فيلسوف الخبرة ، كما سمى مذهبه بالتجريبية . وقد اتجه هذا الاتجاه قبل العقد الثالث من القرن العشرين ، إذ نشر سنة ١٩٢٥ كتاب « الخبرة والطبيعة » ثم نشر سنة ١٩٣٤ كتاب « الفن كخبرة » وفى سنة ١٩٣٨ « الخبرة والتربية » . وها هو فى « عقيدته » يبسط الفلسفة التي تمثل مذهبه فى ذلك الحين ، و يرجعها إلى الخبرة . وأكد هذه العقيدة سنة ١٩٣٨ حين نشر مقالا فى كتاب « الفلسفات الحية » ، بدأه بقوله : « إن مساهمتى فى المقالات الأولى لكتاب « الفلسفات الحية » أبرزت فكرة الإيمان فى إمكانيات الخبرة باعتبار أنها صميم فلسفتى . ولقد قلت بمناسبة هذه المساهمة : وسيظل الأفراد دائما مركز الخبرة وكمالها . ولكن ماهية الفرد الواقعة بالفعل فى حياة خبرته تعتمد على طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها[1] . ولم أغير إيمانى فى الخبرة ولا عقيدتى أن الفردية هى مركزها وكمالها . ولكن حدث تغيير فى التأكيد ، من حيث أنى أود الآن أكثر من أى وقت مضى أن أؤكد أن الأفراد هم العوامل النهائية الفاصلة فى طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها »[2] .

وفلسفة الخبرة ولو أننا عرضنا لها من قبل عند الحديث عن التربية إلا أنها تستحق منا تفصيلا أوسع فى حديث نرجئه إلى موضعه .

والفكرة التى يعرضها فى عقيدته الثانية[3] تدور حول الفلسفة السياسية: أيتجه

---

(١) يشير هذا النص الذى اقتبسه إلى « عقيدتى » التى نشرها عام ١٩٣٠ .

(٢) نقلا عن كتاب « البرجماتية والثقافة الأمريكية » ١٩٥٠ ، ص ٣١

Pragmatism and American Culture, edited by Gail Kennedy, Heath and Company, Boston, 1950.

(٣) أى « عقيدتى what I belive التى نشرها عام ١٩٣٨ ، وقد رجعنا إلى النص فى كتاب « البرجماتية» والثقافة الأمريكية » ص ٣١ — ٣٥ .

نحو الديمقراطية أم نحو الاشتراكية ، أيكون الفرد هو المحور الذى تدور عليه الحياة الاجتماعية ، أم أن المجتمع هو الأساس ومصلحة الأفراد تأتى فى المحل الثانى . ولما كان العالم كله قد أخذ يتجه نحو الاشتراكية ، فى الصناعات والزراعة والطب وتأه غير ذلك ، فقد خشى ديوى أن تزول الديمقراطية وتنهدم أركان الفردية التى نصب نفسه للدفاع عنها منذ فجر حياته الفكرية ، وطبقها أول الأمر فى التربية . ولهذا السبب مال بالتأكيد إلى جانب الفرد وألح فى ذلك ليبرز أهميته .

الفلسفة والحضارة

وللفلسفة دورها فى تاريخ الحضارة ، بل لا فرق بين الفلسفة وبين دورها فى تاريخ الحضارة . فإن أنت اكتشفت الوظيفة الصحيحة والوحيدة للحضارة فقد حددت وعرفت الفلسفة ذاتها . وإن أنت حاولت تعريف الفلسفة بأى طريق آخر فقد ضللت .

كتب ديوى هذا الرأى الذى يصل بين الفلسفة والحضارة فى بحث قدمه فى مؤتمر الفلسفة الدولى الثالث سنة ١٩٢٧ ، وظهر بعد ذلك فى عدة مجلات ، ثم طبع فى كتاب مع مقالات أخرى سنة ١٩٣١ ، واتخذ من عنوان المقالة عنواناً للكتاب [١] .

يقول فى هذا البحث إن الفلسفة كالسياسة والأدب والفنون الجميلة هى نفسها ظاهرة من ظواهر الحضارة الإنسانية . وعلاقتها بالتاريخ الاجتماعى وبالحضارة علاقة ذاتية ملازمة . وليست فلسفة الفيلسوف إلا مرآة لمشكلات زمانه ، وكذلك اليوم فهى أثر للصراع بين النظم الثقافية القائمة . إنها صراع بين القديم والجديد . وليس ظهور الفلاسفة بمذاهب جديدة مثل بيكون وديكارت وكانط إلا دليلا على التوفيق بين الموروث من التقاليد وبين النزعات العلمية

(١) Philosophy and Civilisation, 1931, pp. 3-12.

الجديدة مما لا يتفق مع جملة التقاليد الموروثة . والفلاسفة جزء من التاريخ ، واقعون فى شراكه ، وقد يكونون خالقين إلى حد ما للمستقبل ، ولكنهم فى الوقت نفسه من خلق الماضى .

أما القائلون بأن الفلسفة تبحث عن الحقيقة الأزلية المطلقة بصرف النظر عن تأثير الزمان والمكان ، فهم مضطرون إلى التسليم بأن للفلسفة كياناً تاريخيًّا ، وطريقاً زمانيًّا ، ومواضع فى شتى الأمكنة من العالم .

وإذا نظرت إلى تاريخ الفلسفة من أى زاوية وفى أى عصر وجدت تراثاً ثقيلا قد انحدر إليها مع الماضى البعيد ، كما تجد اهتمامات تشغل الأذهان وتكاد تخلب الألباب وتسحر العقول . فتدفعها إلى الثورة نحو قيم جديدة فى الحياة . فى أثينا كانت المشاغل التى شغلت أذهان الفلاسفة سياسية وفنية ، وهى اليوم مشاغل اقتصادية وعلمية . ولكن لابد وراء ذلك من عمل فكرى يؤدى ، وهو الفلسفة .

للفلسفة إذن صلة وثيقة بتاريخ الثقافة وبالتغييرات المتتابعة فى الحضارة ، تغذيها تيارات من التقاليد يمكن تتبعها فى الأوقات العصيبة إلى منابعها كى يتلقى التيار وجهة جديدة . ويخصبها تخمر الاختراعات الحديثة فى الصناعة ، والكشوف الجديدة على وجه الأرض . والفتوحات الجديدة فى العلم . ولكن الفلسفة ليست مجرد انعكاس سلبى للحضارة التى تستمر من خلال التغييرات ، وتتغير من خلال الاستمرار . إنما هى نفسها تغير . والنماذج التى تتكون عند اتصال الجديد بالقديم هى إلى أن تكون نبوءات أدنى إلى أن تكون تسجيلات ، فهى سياسات ومحاولات لرسم ألوان تالية من التقدم .

فالفلسفة تدل على تغيير فى الحضارة .

مهمة الفلسفة ووظيفتها

ولنرجع الآن إلى ما بدأنا به هذا الفصل لنرى كيف تصور ديوى الفلسفة

بعد الحرب الأخيرة ، ما غرضها ومهمتها : وما صلتها بمشكلات الناس فى العصر الحاضر .

إنها كلمته النهائية فى الفلسفة ، التى قالها وقد جاوز الثمانين .

إنها تمثل ثمرة تجاربه فى الحياة ، ومراجعاته لشتى الفلسفات والأفكار ، وخلاصة ما استمده من صلة بعالم تطور من عصر البخار ، إلى الكهربا ، إلى الذرة والفضاء .

لقد بدأ بفلسفة فى التربية ، ثم انتقل إلى فلسفة فى الخبرة ، وهو الآن فى أواخر حياته ينتهى بفلسفة فى القيم .

القيم هى لب الفلسفة وصميمها .

لقد انتهى ديوى كما انتهى أفلاطون من قبل إلى أن صميم الفلسفة هو البحث فى الخير ، وهى المحاضرات التى كان يلقيها أفلاطون فى أواخر حياته ولم يدونها . ولكن ديوى اقتحم قلب هذه المشكلة الدقيقة ، مشكلة القيم ، وأعلن فيها رأيه الذى أقامه على المناهج العلمية .

والفلسفة إنما تبحث فى القيم ، لأن أكثر اشتغالها بالإنسان وسلوكه فى الحياة ، ولاسلوك عند الإنسان العاقل بغير اتجاه إلى يمين أو إلى يسار ، وهذا الاتجاه يقتضى معرفة قيمة ما نحن مقدمون عليه ، وهذه القيمة هى التى تحدد السلوك وتوجهه .

وقد نعى ديوى[1] على أصحاب التقرير الفلسفى الذى أشرنا إليه قولهم بعدم وجود مذهب له سلطة مسلم بها يسمى « فلسفة » ، بل توجد فلسفات ويوجد فلاسفة يختلفون فيما بينهم فلسفيًّا .على العكس توجد فلسفة واحدة لها مذهب وسلطة مسلم بها ، وناطق بلسانها . ولم تظهر هذه الفلسفة فى تقرير أساتذة الفلسفة لأن المذهب الذى يتبعونه أو المذاهب التى يعتنقونها ، ترجع إلى سلطة

---

(١) فيما يلى تلخيص واف للمقدمة التى كتبها ديوى لكتاب مشكلات الناس ، ونحن ننقلها من الطبعة الثانية التى صدرت بعنوان « فلسفة التربية » سنة ١٩٥٦ ، من صفحة ٣ ، إلى ٢٠

عليا ، وإلى الوحي الغيبي ، وهى دليل على الهوة التى تفصل بين الماضى والحاضر ، إذ لا حاجة فى الوقت الحاضر إلى سلطة عليا ، من فوق ، لأن السلطة التى يعتمدون عليها مستمدة من الحياة نفسها وما يكسبه الإنسان فيها من خبرة . وكانت الفلسفة فى العصر الوسيط لاهوتاً يصدر عن سلطة غيبية فوقطبعية . من ثم نشأت الثنائية بين الفوقطبعى وبين الدنيوى ، وظهرت الثنائيات المشهورة فى تاريخ الفلسفة . وقد ورث أصحاب التقرير فلسفة العصر الوسيط فذهبوا إلى أن الفلسفة هى العلم « بالوجود » و « بالحقيقة » وكلاهما أشمل وأعمق مما يمكن تقوم العلوم الحديثة وما لها من مناهج ببحثه . ذلك أن العلم الحديث يتعلق بالمتغير . بالداخل فى الزمان ، بالحادث ، على حين طلبت الفلسفة من قديم معرفة الأزلى والضرورى بذاته .

ولكن الحياة المعاصرة أخذت تتغير فى كل شىء عن مزاولات الحياة قديما .

ففى السياسة انفصلت الكنيسة عن الدولة .

وفى الصناعة والتجارة ابتدعت طرق جديدة بدلا من القواعد القديمة الثابتة .

وظهرت ضروب من الاهتمامات وألوان من التسلية لا عهد للناس بها .

وفى العلم هزت المناهج الحديثة أركان علوم الفلك والطبيعة والحياة والأنثر وبولوجيا .

هناك إذن هوة سحيقة بين العلوم الوضعية واللاهوتية ، بين الدنيوى والسماوى ، بين الاهتمامات الدنيوية والأزلية . وعلى الرغم من هذا التقدم الهائل فى العلوم والاقتصاد ت لا تزال الفلسفة تبحث عن الحقيقة الثابتة .

ونحن إذا رجعنا إلى الفلسفة قديماً ، زمان سقراط مثلا ، رأينا أنها كانت محبة الحكمة ، والبحث عنها ، ولكنها لم تعد اليوم كذلك ، لأن الحكمة هى التطبيق البصير لما نعرفه فى السلوك على أمور الحياة. أما الفلسفة اليوم فقد انعزلت عن الحياة ، وأخذ الفلاسفة يشتغلون بمباحث ميتافيزيقية ، مثل نظرية المعرفة ،

فى أسس المعرفة وإمكانها وشروطها . ولكن ما الفائدة أن نبحث عن « شروط المعرفة » مغفلين هذه المشكلة الهامة ، ألا وهى « نتائج » المعرفة الواقعة والممكنة؟.

وما نتائج العلم فى العصر الحاضر ؟ ولماذا تقصر المناهج العلمية على العلم وحده ؟ المناهج العلمية تقرر الظروف الاقتصادية المحسوسة التى يعيش الناس فى ظلها ، ولكنها لا تخدم الأغراض الأخلاقية والإنسانية التى تخدم القيم الحاضرة . من أجل ذلك تركت هذه الأمور الإنسانية وهى الأهم تحددها العادات والأهواء ومصالح الطبقات والتقاليد المتجسدة فى النظم المختلفة ، وهذه كلها واقعة فى أيدى أصحاب القوة والسلطان ، الذين لا يحفلون إلا بمصالحهم الخاصة ، التى تقتضى ارتفاعهم على غيرهم .

وقد ظهرت حركة جديدة فى الفلسفة بدأت من نهاية القرن الماضى ، ولا تزال مستمرة ، تستبقى الفكرة القائلة بأن الفلسفة تبحث عن الحقيقة العليا فى ظل مثل هذه الظروف . وسبيلها إلى ذلك الرياضيات ، والرمزية التى تشبه الرياضة ، مستبعدةً مظهر الفلسفة الذى كان يسمى بالبحث عن الحكمة[1] .

تنكر هذه الفلسفات الحديثة إمكان العقل معرفة الأمور السياسية والأخلاقية وعلى الجملة الإنسانيات ، وتذهب إلى أن الأمور العملية للناس مسألة قيم وتقدير ، وبناءً على ذلك فهى بطبيعتها عاجزة عن التقدير الفكرى على أساس عقلى .

وهذه الحركة مستمدة أكبر الظن من الإغريق الذين رفعوا النظر على العمل ، والعمل موضوع التغير لا الوجود الثابت . وتزعم هذه الفلسفة الجديدة أن الأمور الأخلاقية لأنها تتعلق بالقيم الذاتية أو الأغراض فى ذاتها ، فهى خارجة بالكلية عن نطاق أى نوع من المعرفة .

ويقول قائلهم : إن أفعال الناس تتبع نظرياتهم عن العالم والحياة الإنسانية

---

(١) من الواضح أن ديوى ينتقد الفلسفة القائمة على أسس رياضية ، والتى يمثلها برتراند رسل بوجه خاص ، وسنعرض لهاتين الوجهتين من النظر بالتفصيل عند الكلام عن ديوى المنطقى .

وإلى ما هو خير وشر . وأن الخير والشر يرجعان إلى ما نحب ونكره . وما نحبه أو نكرهه من الأمور « الشخصية » الخاصة التى نعجز عن الحكم عليها على أسس « موضوعية » . هذا إلى أن ما نحب وما نكره أمور تستعصى على التغيير بالمعرفة ما دامت هذه الأمور تعيش فى عزلة وخفاء بين الفرد ونفسه . وقد يمكن تقدير القيم الخارجية لأنها ليست سوى وسائل لا غايات حقيقية ، ومن هذا الوجه يمكن تحديدها بمناهج تخضع للفحص العلمى . ولكن الغايات الحقيقية التى تخدمها هذه الغايات الظاهرة فإنها من الأمور التى تحبها أو تكرهها الجماعات والطبقات والنحل والأجناس .

مهما يكن من شىء فقد برزت مشكلة القيم والتقدير إلى الصف الأول وأصبحت مركز الاهتمام فى الفلسفة . وفى الوقت نفسه لا يمكن إنكار العلم وما بلغه من تقدم وفتوح . ولقد كانت الفلسفة فى الزمن القديم تتخذ من الغيبية والفوقطبعية مرجعاً وملاذا . غير أن الفلسفة الجديدة ، التى يدين بها جون ديوى ويبشر بها تفترق عن القديمة فى أن غاية الفلسفة ومهمتها هى البحث عن الحكمة وعن الغايات والقيم التى توجه النشاط الاجتماعى . ومن جهة أخرى يجب الابتعاد عن الحقائق الأزلية الكلية التى كنا نعدها الأساس الذى يمدنا بطرق السير فى البحث . والاعتماد على المناهج العلمية التى نجحت فى العلوم الطبيعية والحيوية . وإذا أبعدنا هذه المعوقات استطاعت المناهج العلمية أن تبحث الأمور الاجتماعية والإنسانية .

هذه الحركة الجديدة تسمى البرجماتية تارة ، أو التجريبية تارة أخرى ، أو الأداتية تارة ثالثة . وليس المهم أسماء هذه المذاهب بمقدر ما تحمله من أفكار .

تعترف البرجماتية أن العلم لا يزال فى طفولته ، وأن المنهج العلمى لم يصل بعد إلى تمام النضوج ، ولن يبلغ المنهج كماله إلا حين يشمل الأمور الإنسانية . ومصدر الشرور اليوم راجع إلى عدم التوازن فى تطبيق منهج البحث على كل شىء ، لأنه يطبق على العلوم فقط . ومهمة الفلسفة الاشتغال بالمشكلات الناشئة

عن هذا الانفصال ، بين منهج يطبق على العلوم وآخر يطبق على الإنسانيات .

وظيفة الفلسفة اليوم أن تتصل بمشكلات الساعة فى الوقت الحاضر . واليوم نجد أن فتوحات العلم كلها تعتمد على علاقات زمكانية ، لها صلة بالزمان والمكان . وذلك على العكس من فلسفات المطلق التى تجعل المطلق فوق الزمان والمكان . وجميع الأشياء علمية كانت أم اجتماعية تقوم على علاقات زمكانية ، ومن السخف أن نفترض أنها تنتهى عند الجزئيات ، على العكس إنها تتحرك دائماً نحو العام بشرط أن يتصل العام بعلاقات أوسع ، حتى لا يعوم المرء فى فراغ لفظى . فالفلسفة الجديدة تستخدم المناهج والوسائل للبحث الصحيح كأدوات لامتحان القيم التى تعمل اليوم على تنظيم العادات الإنسانية والنظم المختلفة .

وأول مهمة للفلسفة فى الوقت الحاضر أن تقوم بتنظيف بيتها أولا ، وذلك بأن تتخلص من مذاهب فلسفية موروثة تعوق التقدم الإنسانى . ومن أمثلة هذا التراث البالى الفصل بين العقل والمادة . ورفع المثالى والروحانى إلى قمة الوجود ، والحط من كل ما هو مادى ودنيوى إلى أدنى منزلة . وقد نشأ هذا الفصل فى الفلسفة انعكاساً للفصل السياسى والاقتصادى بين الطبقات . كان العبيد والصناع يشتغلون بالمهن المادية ، والمواطنون الأحرار بالعلوم النظرية . ولا تزال النظرة إلى الأعمال المهنية اليوم أقل شأناً من الاشتغال بالسياسة مثلا . لقد ورثنا الفصل بين السياسة والأخلاق وبين الاقتصاد والتجارة ، ومن وظيفة الفلسفة اليوم الجمع بينهما .

وتتصل بمهمة تنظيف الفلسفة بيتها إلغاء الثنائية التى تفصل بين القيم الموضوعية والذاتية ، بين الغاية والوسيلة ، وإلغاء النظر الذاتى إلى القيم على أساس أنها شخصية .

وهذه هى المهمة التطهيرية .

والمهمة الثانية للفلسفة هى النقد . ولا غرابة أن ينزع ديوى ناحية الفلسفة النقدية وهو الذى درس أول ما درس كانط . غير أن فكرة النقد عنده تختلف

عن فكرتها عند صاحب نقد العقل الخالص . كان كانط يقصد بالنقد النظر فى العقل البشرى وتحليله لأنه أساس المعرفة ، والطريق الموصل إليها . ولكن ديوى يرى فى العقل رأياً مختلفاً . أنه لا يتكون من مقولات أولية سابقة على الخبرة ، بل هو أداة من أدوات الخبرة . والفلسفة فى حاجة إلى نقد منظم وشامل للمناهج السائدة فى العلوم الاجتماعية ، كما بدأ العلم بالبحث فى مناهجه وسار فى الطريق الموصل حقاً إلى المعرفة الصحيحة . والنظر فى هذه المناهج ، وامتحانها ، واتباع طريقة المحاولة والخطأ ، لا يمكن أن يقوم به فرد واحد ، وإنما يحتاج إلى تعاون المشتغلين بالفلسفة فى جميع أنحاء العالم . لقد كان العلم الطبيعى منذ ثلاثة قرون فى موقف يشبه موقف الفلسفة اليوم . ومن أجل ذلك تحتاج إلى زمن وصبر وجهد لتغير مناهجها والأخذ بنظريات وفروض جديدة . وفى هذا البحث التمهيدى ينبغى أن نستبعد الفكرة القائلة بأن المعرفة خارج النشاط الاجتماعى وأنها تفرض عليه فرضاً ، بل المعرفة هى ذاتها صورة من هذا النشاط كالزراعة أو النقل . ولما كانت فكرة « العقل » قد اتصلت من قديم بنظريات المعرفة ، وكذلك فكرة « الذات الفردية » ، فيجب استبعادهما من مجال الفلسفة . أما الطريق الصحيح للمعرفة فهو الملاحظة المنظمة للظروف الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية التى بها تسير المعرفة .

هذه خلاصة الدستور الفلسفى الذى وضعه ديوى فى مقدمة كتابه « مشكلات الناس » وهو دستور يميل بالفلسفة إلى جانب الحكمة ، وينحو بها ناحية القيم الإنسانية . وقد نقل ديوى كلمة جوزيا رويس التى يقول فيها : « إنك تتفلسف حين تتأمل ناقداً ما تعمله فى عالمك . وما تعمله هو قبل كل شىء أن تعيش ، وأن تعيش يتطلب إيماناً وعواطف وشكوكاً وشجاعة . والفلسفة هى البحث النقدى فيما تعنيه هذه الأمور وما تستلزمه » . ثم عقب على ذلك بما فحواه إننا نعيش الآن فى عالم يبدو غريباً عنا أكثر منه قريباً منا ، وفقد الفرد ثقته فى غيره وأصبح يرتاب فيه ويبتعد عنه . إننا نحتاج إلى أن يكون للعالم الذى نعيش فيه معنى

وقيمة ، وكأنه بيتنا الذى نلوذ به ، لا أن نهرب منه إلى عالم آخر .

لقد خلقنا فى هذا العالم ، وفيه نعيش ، وعلينا أن نعمل على رقيه وتحسينه وتجميله وتأمينه . ومهمة الفلسفة أن تقوم بهذا الجهد المضنى .

إنها فلسفة تفاؤل ، على عكس فلسفات التشاؤم التى سادت فى القرن التاسع عشر . وفى القرن العشرين ، تبشر بالويل والثبور والشر .

ولقد وضع ديوى أمله فى التربية ، وفى الحضارة . وفى العلم ليأخذ بيد البشرية فى طريق الرقى والتقدم .